

الذكرى الأولى:

شكيب الشاعر

للشيخ محمد رجب البيوي

- ١ -

ولو لم يكن شكيب كاتباً فريداً لكان شاعراً جيداً ؛
 معها كعنان كما رجحت الواحدة شالت الأخرى ،
 المنفلوطي

مات أمير البيان .

متذعام كامل (١) حرجت الصحف على قرائها بهذا النبأ الفاجع
 فأشعلت القلوب حسرة ، وأرغمت الجوامح لوعة ، ولقد سقطت
 من عيني عبرات محرقة ، كأني أطلع نعي صديق حبيب ، تصلني
 به وشائج القرابة والصحبة ولاعجب في ذلك ، فقد تتلمذت سنوات
 عديدة على أمير البيان ، أدرس كتبه فاستفيد ، وأحفظ قصائده
 فأنفع ، كما أنظر إلى مواقفه الزائفة في نصرة القضايا العربية ،
 فأتمنى أن يوجد بين زعماء الشرق من يقتنى أثره ، وينسج على
 منواله في التضحية والفداء .

ولقد شمعت بحنين رائد ينازعني إلى الكتابة عنه ، فكنت
 أسائل نفسي ما عيسى أن أقول في هذا الرجل ، وقد كان أمة
 وحده تسمى وراء العظام ، وتضطلع بما تنوء به شم الغياثي ، وهو
 فوق ذلك بجأته قدير تسير مؤلفاته مسير الشمس في الكون ،
 ونأثر موهوب تتزاحم عليه الماني الفاتقة فيختار منها كل جميل
 فائق ، وشاعر مطبوع تتطامن له رقاب القوافي ، ويسلس لديه
 كل أبي جموح .

غير أن الذين تكلموا عنه طيلة العام الفائت لم يمرضوا إلى
 شعره الرائع بما ينبغي أن يلم به كل متحدث عن الأمير ، وكأني
 بجهاده السياسي ، ونثره العلمي ، قد طغيا على ما تنفى به رحمه الله
 من فتن النظم ، وبارح القصيد ، لذلك رأيت أن أبحث عن فنه
 الرفيع ليعلم من يتشددون اليوم بالهراء النث كيف يكون القريض
 العربي في ديباجته المشرقة ، وعاطفته الجياشة ، وليدرك القاريء
 هذا الفرق الواضح بين من يحافظ على عريته الخالصة ، ولهجته
 الأميلة ، وبين من يضلله الله على علم ، فينقل ما وعاه من دواوين

الفرجة ، دون أن يشعر باحساس صادق لما يقول ، ويؤيد فيجمل
 لنته قلقة مفككة تنادى على نفسها بالويل والثبور .

ولقد نشأ الشاعر في أسرة عربية عميقة يتصل نسبها بالنبهان
 ابن النذر عظيم الحيرة في عهدنا البسام ، فلا غرابة إذن حين نجد
 الأرسلايين مفطورين على الطبايع العربية التي تحدث عنها تاريخنا
 المجيد ، من حب للمروءة ، وذود عن الحياض ، وتملق بالشمر
 يسمعه العربي ، فهز أعطافه مرها ، وبرقص قلبه طرباً على
 موسيقاه ، لأنه يفصح عن ذات نفسه أصدق إفصاح .

وسيصدق القاريء كلامي هذا حين يعلم أن الأمير شكيبا
 وأخويه الأميرين نسيباً وعادلاً قد تركوا للشعر العربي كثرأ ثمينا
 يمتاز بفرائده وبياهي بلائته وما ظنك بأشقاه ثلاثة فيهم الصنابة
 الصناع ، والذواقة الفن ، والطائر الصداح

وقد ولد شكيب بعد أخيه نسيب بسنة ونصف فنشأ كالتوأمين
 دخلا المدرسة معاً ، ونحزجا معاً ، وبدت تحابل شاعريتهما في سن
 مبكرة ، وهل سميت أن شاعراً نشر قصائده في الصحف وهو في
 الزاوية عشرة من عمره قبل شكيب ؟ وهل سميت أن شاعراً كان
 الأول في مسابقة شعرية عامة ، وهو في السادسة عشرة قبل
 نسيب ؟ كل هذا كان بفضل الوهبة الشعرية التي أنتقلت إليهما
 عن طريق الوراثة ، والتي ترعرعت بما حفظاه في عهد الحدانة من
 شمر جيد ، قد ارتقى بهما درجات في سلم الكمال .

على أن القدر قد ساق إليهما في ذلك العهد الشيخ محمد عبده
 إذ كان أستاذاً في المدرسة السلطانية ببيروت ، فدلها على شعر
 البارودي وهو كما نعلم إشراق لفظ وجودة معنى ، حيث أكا على
 قصائده حفظاً واستظهاراً ، ولا تسل عما يفعله الشاعر المعاصر
 في أبناء جيله ، فهو يقرب إليهم البعيد ، ويدق منهم الشاسع ،
 كما يخلق فيهم الرغبة الملحة في الارتقاء إلى منزلة ، والصعود إلى
 ذروته ، ومن هنا كان ساي نهراً صافياً فاض عليهما في بيروت
 بالتميز المذنب كما فاض على شوق وحافظ بوادي النيل .

ولقد كان أثر البارودي في شكيب أوضح منه في نسيب ؛
 فإنه جذب الأول إلى من يشابهونه من شعراء بني العباس ، فكان
 قنطرة عبر منها الأمير إلى البحري والتنبي والشريف وأخيراً ممن
 قطف رب السيف والقلم أزهيرم الناضرة ؛ أما نسيب فقد عكف
 — كما يقول أمير البيان — على قراءة شعراء الملقات ومن لف
 لفهم من الحضرمين والأمويين ، فجاء لفظه يدويًا وخياله جاهليًا

على نظر ناقد وفكر حصيف ، على أن الدقة كانت نحوون الأمير
في بعض الأحيان ، فيظهر شعره مطلقاً عن أصله الذي قيس عليه
وإليك قوله في مطلع قصيدة .

بقلي ماتهمي الميون وتأرق وللمين ما يبلى الفؤاد ويرهن
وما كنت ممن برهن المشق قلبه ولكن من بدرى فنونك يمشق
فهذان البيتان بشهدان أنها مأخوذتان من قول المتنبي .

لعينك ما بلى الفؤاد وما لقي وللشوق ما لم يبق متى وما بقي
وما كنت ممن يدخل المشق قلبه

ولكن من يبصر جفونك يعشق
ومثل هذا التقليد في « الباكورة » كثير .

وما كاد أمير البيان يتجاوز هذا الدور ويخطو في المقعد الثالث
من عمره حتى تمكن من فنه واستوى على قمة مجده ، فصار جيد
السيك ، وثاب الخيال ، بعيداً عما يبناء من المحاكاة والتقليد ،
واقدر كان مولماً بأستاذه البارودي إلى درجة جعلته يكثر من التفكير
فيه ، فصار لا يكتب مقالا في جريدة أو بحثاً في مجلة ، إلا توجه
بشعر سامي ، مبالغاً في إطرانه ، ونشاء الأقدار أن تقع بعض هذه
الكلمات في يد رب السيف والقلم ، وهو يازح عن عربته في
سرنديب ، فيدفعه شوق عاصف إلى من يشق عليه ثم يفلو به الحنين
فيكتب إلى الأمير على بعد الدار وتزوج الزار .

أشدت بذكري بادئاً ومقبلاً وأمكت لم أنبس ولم أتكلم
وماذاك ضنا بالوداد على امرئى حبانى به لكن تهيت مقدى
ولك أن تتصور فرحة الأمير بكتاب أستاذه ، فقد حقق له
أمله الكبير في التعرف به ، فطفق يحمد الظروف الطيبة التي
هيأت له ما يريد ، ثم كتب إليه قصيدة عصماء تشتمل وجداً وتنديع
حناناً وفيها يقول .

ألى كل يوم فيك وجد كأنما طوى جانحاً منى على نار ميسم
حلفت بما بين الخطيم وزمزم وبالسدرة العليا ألية مقسم
لأنفيت عندى دوس مشتجر ألقنا

وخوضى في حوض من الدم دم
أقل لقلبي في المواقف هيبة وأهون من ذاك المقام العف
وهذا تصوير جميل يدل على ما وصله إليه الأمير في درجات
الشعر وأطن الفرق بينه وبين الباكورة بعيد ، فهذا شعر قوى
محكم اعتمد فيه الأمير على نفسه وانترعه من ذات صدره ، فجاء

وأنت حين تقرأ له تحتاج إلى غير قليل من التريث والاطمئنان ،
على أنه قد يتأثر بالبارودي فتراه وسطاً بين الجزالة والسلاسة كأن
يقول في فقير بأفس .

يحد أديم الأرض خدا كأنما له قبل الفجر نأر مخاف
جبين بمرفض الصيب مضمخ وشعر بملتص الغبار مناف
وجيد خفوق الأحد عين كأنما نبتت من أوداجه الدم ينطف
إذازلته سرعة الخطو أو شكت أضالعه في زوره تنقصف
كأن أزيز الجوف عند وجيبه حسيس هشيم والندى يتوكف
يساقط نثر الطين عنه إذا مشى كإفض ختم الدين سكران معنف
كأنى به إذ فرق التراب والحسى

يفتش هل في باطن الأرض منصف
إذا استنجد الآمال عند اكتتابه

تبدى له ستر من القار مغرف
وعلى كل فقد كان أمير البيان أكثر توفيقاً في هيامه بالشعر
العباسي وحده ، فقد نضح عليه من المذوبة والرقعة ، ما جعل شعره
حبيباً إلى نفوس قرائه . ومن نعم الله على شكيب أن هيا له الأسماع
التي تصيخ مبهجة إلى إنتاجه من يوم أن عرفته العربية أديباً يافعا
يتنقل بين حجرات درسه فكان لا ينشر في الجرائد — مع حداثة
عمره — قصيدة إلا تردد صداها في ربوع الشام ، ولقد شجعه
هذا على المضي في سبيله ، فاستمر يظهر للميون ثلاثه من حين إلى
حين ، وما بلغ السابعة عشرة من سنه ، حتى جمع ما نشره متفرقاً
في الصحف بديوان صغير أسماه الباكورة ، وقد جعل إهداءه
للأستاذ الإمام ، متودداً إليه في تواضع ، معترفاً بصفاته هديته في
جانب ما يلبق أن يهدى إلى حكيم الإسلام فهو يقول في اهدائه .
هي دون ما يهدى إليك وطالما قبل الكبير هدية من صاغر
أهديتها لاكي تليق وإنما مثل على ما فاق ليس بقادر
ومهما يكن من شيء فقد كان اظهور الباكورة رنين في مختلف
الصحف الشامية ، فهذه تقرظ ، وتلك تنقد ، مما أكسب الشاعر
الناسي منزلة في القلوب ، والواقع أن في ديوان الباكورة شاعرية
غضة ، تدل على مستقبل زاهر ، إلا أنها — والحق يقال —
لا تستاهل هذه الضجة الكبيرة ، إذا قيس بما يقال في عهدنا
الحاضر به تنوع المذاهب الشعرية ، ولكنها بالنسبة إلى زمنها
السابق حميدة مقبولة ، لأنها محاكاة للشعر القديم في دقة تدل